الاسطول والبحرية

أيام محمد علي

للدكتور علي مظهر

— ١ —

في الوقت الذي أخذت فيه دول كثيرة تعد عدتها للهجوم أو للدفاع وفي الايام التي ترى فيها الدول تأسس أساطيلها وعراكبها الحربية بالتنقل من مرفأ الى مرفأ ومن ثغر الى ثغر وفي الشهور التي تنادي فيها أمم بالويل والثبور وعظائم الامور لمن يعتدي على حرمة بلادها وتعدُّ ما استطاعت من بأس وقوة ومن رباط الخيل ترهب به اعداءها ؛ دع الطيارات والمصفحات والدبابات والمهلكات والغازات الخانقة والسامة ، وفي الوقت الذي تدعي فيه بعض الشعوب ملكية بعض البحار تتقول عنه (بحرنا) وتأبى الاّ أن تكون سيدة ذلك البحر الخضمّ — في هذا الوقت الذي ترى فيه كل تلك المعدات ولا ترى لمصر فيها معدات تذكر فلا أسطول ولا بحرية ، يجب علينا أن نرجع البصر ونقلب صفحات الماضي المجيد فنذكر ما كان لنا من قوة وبأس ومن أسطول وبحرية ليس في الماضي المتراخي في القدم أيام الفراعنة ومن تلاهم حسب بل وفي السنين القريبة منا التي يكاد يذكرها بعض المسنين ممن عاصروا بالعيش فيها والتي يذكرها أولاد من اشتركوا في خدمة مصر في تلك الأيام حتى انا لنكاد نرى خيال تلك العظمة ماثلاً أمامنا اذا ما عثرنا على شيخ هرم اشترك في جيش ذلك العهد أو حدثنا رجل من اعيان الارياف عن أبيه الذي كان قبطاناً في الاسطول المصري أيام محمد علي

وانني لأذكر يوماً في هذا الشهر جلست في مصايف مع عين من أعيان القيوم وكان الحديث ذا شجون ورحنا نتنقل من حديث الى حديث وكان جلستنا وكانت على بحر يوسف ونحن نرى مياهه النيلية الحمراء تتدفق أمامنا وتمر بسرعة كما مرّ قرن أو يزيد على تلك الذكرى السارة المؤلمة ، ذكرتنا بما كان لمصر من عز ومنعة قبل قرن من الزمان أيام أبي الشعب المصري في العصر الحديث فاخذ الرجل يحدثنا عن ابيه الذي كان قبطاناً لسفينة حربية من سفن الاسطول المصري اذ كانت البحرية المصرية أيام منشئها محمد علي كالنيل النجاشي وهو يزخر بمياهه ويتدفق في عظمته وجلاله وما أصبحت عليه البحرية اليوم فهي كقناة صغيرة تستمد مياهها القليلة بشادوف

يعمل فيه صاحبه بجهد ليروي فيراطاً وسهماً من الارض. ولعل رؤيا مياه بحر يوسف أمامنا وقشة وانتقال الخيال العريض هو الذي دعا ذلك السيد أن يحدثنا عن البحر والاساطيل والمراكب فتمر بالوسنان كشريط من اشرطة الصور المتحركة وأن يحدثنا عن الماضي والآباء والجدود . وليس ذلك السيد هو المخلف الوحيد من سلالة من اشتركوا في قيادة السفن الحربية أيام محمد علي أو في بنائها فأنت أينما سرت وبحثت عثرت على ذريتهم منتشرة من ساحل البحر الابيض المتوسط الى أقاصي السودان . وكان ذلك الحديث هو الذي أثار الذكرى لاقيام بحثنا عن البحرية المصرية قديماً وحديثاً وكنا قد نشرنا جانباً كبيراً منهُ قبل اليوم على صفحات المقتطف. فلنعد اليوم الى ذكر مفخرة من مفاخر الاجيال ونشر هذا الذكر الطيب عن تلك الايام السعيدة بعد أن شغلتنا أمور عن نشرها

محمد علي والبحرية المصرية

يمكن تقسيم الكلام على البحرية المصرية الى قسمين كل قسم منها يختص الكلام فيه على مدة فالمدة الاولى تبدأ بسنة ١٢٢٤ هـ الموافقة لسنة ١٨١٠ ميلادية وتنتهي سنة ١٢٤٣ هـ الموافقة لسنة ١٨٢٩ والمدة الثانية تبدأ من سنة ١٢٤٤ هـ الموافقة لسنة ١٨٢٩ ميلادية وتنتهي بولاية ابراهيم باشا سنة ١٢٦٥ هـ الموافقة لسنة ١٨٤٨ ميلادية

المدة الاولى

بعد أن لبث محمد علي والياً على مصر عدة سنوات ارسلت اليهِ الدولة التركية العثمانية أمراً بتوجيه حملة عسكرية على الوهابيين لاسترداد البلاد التي احتلوها من الحجاز خشية استفحال أمر دولتهم الناشئة في قلب جزيرة العرب . فرأى محمد علي ان نقل الجنود والمعدات الحربية من مصر الى الحجاز غير ميسور الا على ظهور المراكب عن طريق البحر الاحمر فبادر الى تشييد دار صناعة السفن بولاق لانشاء تلك السفن فأمر بقطع الاشجار الصالحة لبناء السفن وتجهيزها ثم تنقل مفككة على ظهور الابل الى السويس فتركب هناك ثم تنزل في البحر لحمل الرجال والعتاد الحربي والمؤن والذخائر وبذا يمكن أن يقال ان تلك السفن المنشأة كانت النواة الاولى للبحرية المصرية أيام ذلك الرجل العظيم وكان لتلك السفن فضل كبير في نجاح الحملة التي وجهت الى الوهابيين وجعلت لمصر مقاماً وهيبة في البحر الاحمر وثغوره

وقد ذكر الجبرتي في تاريخه في حوادث شهر ذي الحجة سنة ١٢٢٤ هـ ما نصه :

واستهل شهر ذي الحجة بيوم الاحد سنة ١٢٢٤ هـ (يوافق ٧ يناير سنة ١٨١٠ ميلادية) وفيه شرع الباشا (يريد محمداً عليًّا) في انشاء مراكب لبحر القلزم (البحر الاحمر) . فطلب الاخشاب الصالحة لذلك . وارسل المعينين لقطع اشجار التوت والتبن من القطر المصري القبلي والبحري وغيرها من الاخشاب المجلوبة من الروم (بلاد الاناضول) . وجعل بساحل بولاق ترسخانة (دار صناعة

للسفن) وورشات (معامل ومصانع) وجمع الصنّاع والنجّارين والنشّارين فيهيئونها وتحمل اخشابها على الجمال ويركّبها الصنّاع بالسويس سفينة ثم يتلفطونها ويبيضونها ويلفونها في البحر فعملوا اربع سفائن كبار احداها تسمى الاريق (تشبهها بالاريق وكانت عبارة عن سفينة بساريتين وقلوع مربعة واسمها عند الافرنج بريك) وخلاف ذلك داوات لحمل السفار والبضائع

ويفهم من كلام الجبرتي في حوادث سنة ١٢٢٧ هـ (توافق سنة ١٨١٢ م.) أن دار صناعة بولاق كانت تنشىء (المراكب الكبار والصغار التي تسرح في النيل من قبلي الى بحري ومن بحري الى قبلي ولا يبطل الانشاء والاعمال والعمل على الدوام وكل ذلك على ذمته (على حساب محمد علي باشا) ومرمتها وعمارتها ولوازمها وملاحوها باجرتهم على طرفه لا بالضمان كما كان في السابق. ولهم قومة ومباشرون منقيدون بذلك الليل والنهار)

ثم انهُ ذكر في حوادث تلك السنة عينها ما نصهُ:

ان الباشا ارسل لقطع الاشجار المحتاج اليها في عمل المراكب مثل التوت والنبق من جميع البلاد القبلية والبحرية فلبث المعيّنون لذلك في البلاد فلم يبقوا من ذلك الاّ القليل لمعالجة اصحابه بالرشا والبراطيل حتى يتركوا لهم ما يتركون فيجتمع بترسخانة (دار صناعة السفن ببولاق) الاخشاب لصناعة المراكب مع ما ينضم اليها من الاخشاب الرومية (من بلاد الاناضول) شيء عظيم جدًّا يتعجب منهُ الناظر من كثرته. وكلما نقص منهُ شيء في العمل اجتمع خلافه اكثر منهُ

وعاد الجبرتي فذكر في حوادث سنة ١٢٣١ هـ (توافق ١٨١٦ م.) ما نصه: والعمل والانشاء بالترسخانة مستمر على الدوام والرؤساء والملاحون يخدمون فيها بالاجرة وعمارة خللها واحيالها وجميع احتياجاتها على طرف الترسخانة. ولذلك مباشرون وكتّاب وامناء يكتبون ويقيدون الصادر والوارد. وهذه الترسخانة بساحل بولاق بها الاخشاب الكثيرة والمتنوعة وما يصلح للعمائر والمراكب ويأتي اليها المجلوب من البلاد الرومية (الاناضول وغيره) والشامية. فاذا ورد شيء من انواع الاخشاب صحوا للخشابة بشيء يسير منها بالثمن الزائد ورفع الباقي الى الترسخانة. اهـ

ففي دار صناعة السفن ببولاق كان انشاء البحرية المصرية الاول ايام محمد علي وفيها انشأ سفناً كباراً حتى رأى انشاء دار الصناعة بالاسكندرية. ويقال ان ذلك المجهود الهائل من نقل الاخشاب من مختلف بلدان مصر والشام والاناضول وبقية البلاد التركية الى بولاق لعمل السفن مفككة لتنقل على ظهور الجمال كان يستدعي استخدام نيفاً وعشرة آلاف من الابل كان يهلك بعضها اثناء العمل فيعوض بغيرها وامكنهُ بذلك ان ينشىء ثماني عشرة سفينة كبيرة كاملة العدة وانزالها الى الماء في مدة عشرة اشهر [1] وذكر اسمعيل باشا سرهنك في كتابه (حقائق الاخبار عن دول البحار ج ٢ ص ٢٢٦) بعد الكلام عن دار صناعة بولاق ما نصه:

(١) المسيو فيلكس مانجان Mangin في تاريخه عن مصر مطبوع بباريس سنة ١٨٣٩

وشيد بالسويس مباني لصناعة السفن انشأ بها اربع سفن جسيمة من نوع الاريق اوهي سفن بساريتين وقلوع مربعة ، واحدى عشرة سفينة اخرى من نوع السكونة اوهي سفينة بسارية واحدة لها قلوع مربعة ونصف سارية ذات قلوع شرطية . ثم توجه الدفتردار (يعني محمداً عليًّا) بنفسه الى السويس لمشارفة ما بها من السفائن سنة ١٢٢٥ هـ . وهناك امر بضبط ما بها من المراكب وما يغيرها من سواحل البحر الاحمر لاستعمالها في الحملة الوهابية . وترى مرهنك باشا رحمهُ الله (ص ٢٢٨) يذكر عودة الوهابيين للقتال بعد تعهدهم بالكف عنهُ فقال ما نصه : واستمد محمد علي باشا لقتالهم واعد السفن ببولاق مصر لحمل الجنود بالنيل الى مدينة قنا للتعبير من هناك الى ثغر القصير وجعل على هذه القوة ولده ابراهيم باشا (١٢ شوال سنة ١٢٣١ هـ — ٣ سبتمبر سنة ١٨١٦ م.) ثم ركبوا اسطول البحر الاحمر الى ينبع اهـ . وهذه كانت الحملة الثانية لمحاربة الوهابية كما يفهم من سياق الكلام . ويظهر ان الفرق في عدد السفن التي امر محمد علي ببنائها في رواية مسيو فيلكس مانجان ورواية مرهنك باشا وهو ثلاث سفن هو الذي اخذه محمد علي مما وجده بالسويس كما يشير الى ذلك الباشا في روايته هذه

الاسطول المصري في البحر المتوسط

على ان محمداً عليًّا كان ذا نفس وثّابة طموحاً الى انشاء دولة كبيرة بعيد النظر لحماية بلاده فرأى ان ينشىء اسطولاً ضخماً الى جانب الجيش الذي كوّنهُ للمحافظة والدفاع عن البلاد والفتح كما رأينا من سيرة ذلك الرجل العظيم

ولما كانت مراكبه التي اصبحت تمخر البحر الاحمر لا يمكنها ان تسير الى البحر المتوسط اذ لم تكن القناة قد انشئت وتشئ . ولما كان يعلم أن بلاده في حاجة الى اسطول يحمي شواطئها الشمالية والى بحرية ليستعين بها على نقل المتاجر والمعدات ولتكون صلة وصل بين مصر وغيرها من الدول الاخرى لهذا رأى ان ينشىء عمارة مصرية واسطولاً قويًّا يمخر عباب البحر المتوسط بين افريقية وآسيا واوربا

فلجأ اولاً الى شراء سفن حربية من الخارج واوصى على انشاء بعضها في ثغور اوربا مثل مرسيليا وليفورن وبريستا وجنوه وسلمها بالمدافع وعهد بقيادتها الى قباطين من الاسكندرية والاتراك كانوا بالسفن التجارية . اما ملاحوها ونوتيتها فكانوا من المتطوعين . وعهد الى بعض الضباط من فرنسا وايطاليا في تدريب البحارة وتعليمهم . يضاف الى ذلك سفينتان حربيتان كان السلطان محمود العثماني قد اهداها اليه . اما السفن التي احضرها محمد علي بواسطة بعض تجار الفرنج فكانت من نوع الفرقاطة والقرويت والاريق على مثال السفينتين اللتين اهديتا اليه من السلطان

وكان في الاسكندرية دار صناعة قديمة تبنى بها بعض السفن من طراز قديم وجعل شاكر افندي الاسكندري رئيساً للهندسة فيها وضمَّ اليه رجلاً عرف ببراعته في فن بناء السفن وكانوا من مشهوري

المعلمين بالاسكندرية يسمى الحاج عمر فجعله محمد علي رئيساً للانشاء وعمارة السفن وجعل الحاج احمد اغا ناظراً على بناء السفن . ولما حضر المسيو بيسون Besson وكان من ضباط السفن الحربية الفرنسية الى مصر في سنة ١٨٢١ وعرض خدمته على محمد علي جعله ملاحظاً للسفن التي امر بصنعها في دور صناعات السفن بأوروبا . وقد حاز ثقة الباشا (محمد علي) وارتقى حتى انعم عليه برتبة البكوية وعرف بالقبس اميرال بيسون بك (اعني نائب امير البحر) . وأوجد ادارة خاصة للاساطيل المصرية وجعل صهره محرم بك محافظ الاسكندرية رئيسها مع احتفاظه بعمله كمحافظ

واشترى محمد علي عدة سفن شراعية لنقل الذخائر والمهمات كانت تجلب الاخشاب اللازمة لدار الصناعة الجديدة بالاسكندرية وقد كانت على الشاطىء الشرقي من الميناء الغربية جهة خط الصيادين بالاسكندرية. وجعل بها معامل للحدادة والنجارة والقلفطة وغير ذلك مما تحتاج اليه السفن الحربية . وكانت تلك السفن الشراعية تجلب الاخشاب اللازمة من سواحل بلاد الاناضول

وقد اشتركت السفن التي انشأها محمد علي في الاسكندرية مع السفن التي أمر بانشائها في دور صناعة السفن باوروبا أو التي اشتراها والسفينتين اللتين اهديتا اليه من السلطان في وقعة ناڤارين ببلاد موره باليونان في يوم ٢٠ اكتوبر سنة ١٨٢٧ م

ويرى صاحب السمو الامير العلامة عمر طوسون الذي يعنى عناية خاصة بأعمال جده الكبير ان السفن الحربية التي اشتركت في تلك المعركة كانت اربعاً وثلاثين قطعة غير سفن النقل التي بلغت اربعاً واربعين ، وقد عرف الامير الجليل من سفن محمد علي الحربية قبل موقعة ناڤارين اسماء خمس فرقاطات وهي

(١) شير جهاد (٢) رشيد (٣) ثريا (٤) احسانيه (٥) جهادية وستة قراويت وقولتات هي :

١ — بلنك جهاد — ٢ رهبر جهاد — ٣ ناڤارين — ٤ جيلان — ٥ وشنطن — ٦ تمساح

وقد سمى امين باشا سامي في كتابه تقويم النيل ج ٢ اثنتين من الفرقاطات المذكورة باسم سوريا والحربية بدلاً من ثريا وجهادية

ولا يسعنا الا شكر سموه أجزل الشكر على هذا البحث القيم وعلى الصور التي سمح لنا بنقل نسخ منها لبحثنا هذا كما توجد بعض الصور لفرقاطات محمد علي الاولى في كتاب (فرقاطات محمدعلي الاولى من سنة ١٨٢٤ — سنة ١٨٢٧ لجورج دونين

Les Premières Fregates de Mohamed Aly 1824—1827 par Georges Donin

فليرجع اليه من يريد

ولما كانت موقعة ناڤارين البحرية من الشهرة التاريخية بمكان فقد رأينا أن نتكلم عليها قبل انتقالنا الى الدور الثاني من الكلام على البحرية والاسطول المصري أيام محمد علي وموعدنا العدد التالي ان شاء الله